

## القبائل والقراءات

للأستاذ عبد الستار أحمد فراج

— ع —

—————

يرجع المر في أن قبيلة تميم نالت قسماً كبيراً من عناية الرواة وغلبة ذكراً لها ومعرفة الكثير مما انفردت به إلى أنها كما قدمت في مقال سابق كانت تسكن جانب مجد المجاور للمراق . ومعلوم لنا أن التنافس العلمي والسبق فيه كان ميدانه البصرة والسكوفة للمواجهتين لصحراء العراق حيث يخرج منهما — وعلى الأخص البصرة — العلماء والتأديبون إلى البادية ليأخذوا اللغة من أفواه أربابها الذين لم تفسدهم العجمة . وكان لإيهما يقصد الراغبون في رواية الشعر ومأثور القول وضبط اللغة وغيرها على أعلام شيوخهما كأبي عمرو وأبي عبيدة ، والأصمعي وأبي زيد ، وخلف وسجاد ، والفضل الغنبي وابن الأعرابي ، وغير هؤلاء وأوانك ممن كانت لهم في العربية وعلومها قدم راسخة فلا يجب أن كانت تميم — وبطونها كثيرة — هي أول ما يروى لها ويؤخذ عنها . يضاف إلى هذا ما قدمته في المقال الأول من أن البصرة والسكوفة قد شملتا في مبدأ إنشائهما عدداً كثيراً من تميم ، وهذه من تكلمة ما خالفت فيه غيرها وبخاصة الحجازيين :

١ — « عسي » من أفعال المقاربة تستعمل تامة بمعنى أن ما وليها يعرب فاعلاً لها وذلك إذا ما جاء بعدها « أن والفعل » كقول الله تعالى : « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم » .

وتستعمل ناقصة بمعنى أن يكون لها اسم وخبر مشبهة « كان » في العمل وذلك إذا ما جاء بعدها اسم ظاهر أو اتصل بها الضمير فيعرب اسماً لها ، وبمده « أن والفعل » فيعرب خبراً لها كقول الله تعالى « عسى الله أن يأتي بالفتح » . إلا أن أهل الحجاز لا يلحقون بعسي الضمائر ولا التانيث . يقولون : هند عسى أن تقوم والمحمدان عسى أن يقوموا ، والمحمدون عسى أن يقوموا ... ، لذلك تعتبر عندهم في مثل هذا التركيب مكثفة

بفاعلها غير محتاجة لخبر . أما التميميون فيلحقون بها التانيث والضمائر يقولون : هند عست أنت تقوم والمحمدان عسوا ... والمحمدون عسوا ... ، فتكون في مثل تركيبهم هذا ناقصة . وإذن فتميم تستعملها ككان الناقصة دائماً ، وأهل الحجاز لا يميلونها كذلك إلا في حالة ما إذا تلاها اسم ظاهر وبمده « أن والفعل » .

والقرآن الكريم في أغلب قراءاته لم تقع فيه الضمائر مع عسى إلا في موضعين « قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا » و « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض » وقرأ عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب « لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكون خيراً منهن » بالإضمار فهما على لغة تميم « عسوا أن يكونوا ... عسين أن يكن ... » .

ثم إن عسى فيها لغتان : ( أ ) أن تكون على وزن سمي ، ( ب ) أن تكون على وزن لقي . غير أن الثاني منهما هجر استعماله على إطلاقة واقصر فيه على اتصاله ببناء الفاعل أو نون النسوة أو « نا » . ومن المصعب أن أبا حيان في البحر نقل عن أبي بكر الأذفوي<sup>(١)</sup> وغيره قولهم : إن هذا الكسر لغة الحجازيين . وقد رأينا أن ذلك لا يكون إلا حين الاتصال بالضمائر السابقة وأن الحجازيين لا يلحون بها فإذا صح ما نقله أبو حيان عن الأذفوي يكون إلحافهم الضمائر بعسى منتقلاً إليهم من تميم إذ الأصل في الاستعمال ما قدمته نقلاً عن تفسير أبي حيان نفسه وعن الأثموني وليس استعمال قبيلة للغة قبيلة أخرى بالأمر البعيد وعلى الأخص الحجازيين الذين خالطوا كل القبائل واقتبسوا من لغاتهم ما راق لهم . ومواسم الحج وأسواق العرب المشهورة لها أكبر الأثر في تقارب اللغات وتفهم الألفاظ والتراكيب المنتشرة بين القبائل المختلفة . قال أحمد بن فارس بعد أن تكلم في كتابه الصحابي على اختلاف لغات العرب ما يأتي : « وهي وإن كانت لغوم دون قوم فإنها لما انتشرت تماورها كل » .

(١) قال ابن الجزري في كتابه غاية النهاية : « أذفو بضم الهمزة وسكون الذال المعجمة وفاء ، مدينة حنة بالقرب من أسوان » . فاعل سكانها الآن ، يفضلون ما اشتهرت به تديماً بالإجماع على ما ينطق به اليوم بالإجمال .

هناك ، ولا أولاك ولا أولاك « بل كل ما جاء فيه على لغة  
الحجازيين « إن هذه تذكرة » ، « وذلك هو الفوز العظيم » ،  
« تلك الرسل » ، « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم  
الفلحون » ، « هنالك الولاية لله الحق » .

ويضاف إلى ما تقدم أن قبيلتي تميم وقيس تقولان « هاهنا »  
ببكر الماء وتشديد النون وغيرها بضم ففتح بدون تشديد .

٣ - « إما » التي للتفصيل تنطقها قبائل تميم وأسد وقيس  
بفتح الهمزة ، ففي مثل « أنت إما كريم وإما بخيل » يفتحون  
همزتيهما وبعض منهم يقلب ميمها الأولى مع ذلك ياء . وقد روى  
رجل من عبد القيس يقال له سعد وكان عاقلاً لأمه :

يا أيها أمتنا شالت نعامتها أما إلى جنة أما إلى نار  
وروى أيضاً « إما إلى جنة إما إلى نار » .

فإذا استعملت تميم « أما » الشرطية المفتوحة الهمزة قلبت  
ميمها المدغمة الأولى ياء . ويبدو أن الشعراء في صدر الإسلام  
كانوا - نظراً منهم أو لانتشار اللغات - يفتحون لغة قبائل

أخرى ليسوا منها لشهرتها بين العرب ومعرفتهم لها ، ولذا نجد  
عمر بن أبي ربيعة وهو حجازي يروي بيته الآتي على لغة تميم :

رأت رجلاً أيما إذا الشمس عارضت  
فيضحي وأيما بالعشي فيخصر  
٤ - ما فتى ، وما يفتأ فلان يعمل كذا - من أخوات  
كانت تقولها تميم ما فتأ فلان وما يفتأ فتجعله رباعياً - ولم  
يرد في كتاب الله إلا قوله تعالى « نالته تفتأ تذكر يوسف » ولم  
يقرأ بها أحد على لغة تميم .

٥ - امل - من أخوات إن - تنطقها تميم لئن بالعين  
المججمة والنون قال الفرزدق :

ققا يا صاحبي بنتا لفتنا نرى العرصات أو أثر الخيام  
وليس في القراءات الصحيحة هذا الاستعمال .

٦ - « الهمة » : تأثرت بعض بطون تميم بالفرس ، كما  
تأثرت بذلك قبيلة ظم وما جاورها ، فبنو سعد بن زيد مناة من  
تميم وظم ومن قاربها يبدلون الحاء هاء قال النعمان بن النضر لرجل  
ذكر عنده رجلاً : أردت أن تدمه فدهته . وقال رؤبة بن المعجاج  
وهو من بني سعد بن زيد مناة :

هذا وقد قرأ نافع المدني « عيتم » في موضعها السابقين  
ببكر السين وقرأ الباقون بفتحها .

٣ - في اسم الإشارة المفرد المذكور والمؤنث لا تلحق به  
تميم اللام في حالة البعد بل تلتحق به كاف الخطاب بحسب . لكن  
الحجازيين يلحقون به اللام مع الكاف . فمند تميم « ذاك وتيك »  
للبيد وعند الحجازيين « ذلك وتلك » ومن هذا يتبين لنا أن  
بعض النحاة حين يقولون . هذا للتأريب ، وذلك للمتوسط وذلك  
للبيد ، فيه خلط بين لغات القبائل إذ وجدوا صيغاً ثلاثاً فقلوا  
لها وفرقوا بينها . ونحن إذا لاحظنا مثلاً كلمة « ذاك » في إشارتنا  
نجدها أوضح في البعد من « ذلك » لما فيها من إطالة لحرف المد  
واقية بالترض . وما تزال في كثير من قرى مصر بالعميد  
تستعمل « داك » بالدال المهملة في الإشارة البعيدة المذكور ،  
و « ديك » المؤنثة البعيدة . والواقع أن الشيء إما قريب (١)  
منك حساً أو معنى ، أو بعيد منك كذلك . وفي اللغة الإنجليزية  
« this that » وفي الفرنسية « Ci la »

ومما يلحق بهذا أيضاً « هناك وهنالك » ، فالحجازيون هم  
الذين يلحقون اللام وتميم لا تلحقها جريا على قاعدتها من أنها  
لا تلحق اللام . وكذلك أولاء بعدها الحجازيون غير أنهم  
يلحقون بها الكاف فقط في حالة الإشارة إلى البعيد ، وتميم  
تقصرها وتلحق بها الكاف أما قبائل قيس وأسد وربيعة فإنها  
نفسر أولاء كتميم لكنها تلحق بها اللام (٢) مع الكاف ، وقد  
ورد على لسانهم :

أولاك قومي لم يكونوا أشابة وهل يسط الضليل إلا أولالك  
ومما يلحق بهذا أيضاً أن تميم لا تقول « هذه » في وصل  
الكلام وإنما تقول « هذي » فإذا وقفوا قالوا « هذه » ، أما  
الحجازيون وقيس فيقولون « هذه » في الوقف والوصل . ولم  
يُرد في القرآن الكريم استعمال « هذي ولا ذاك ، ولا نيك ولا

(١) وهذا ما سار عليه ابن مالك وما رجعه الصبان على الأحمدي ،  
وقال إنه عنى لسيبويه .

(٢) ذكر الرحوم حفتي نامف في مميزات لغة العرب ، والرحوم  
الرائس في تاريخ الأدب أن تميم كقيس وأسد وربيعة في استعمال أولالك  
وتعلمها قد يكون من شرح التوشيح ، الذي رجح خلاته الصبان  
وهو ما ذكرته .

لما رأيتني خلت الموه براق أصلا الجبين الأجله  
بعد غداني الشباب الأبله

ومنها : لله در الغايات المده . أراد : الأجلح والمدح .

وقد وردت ألفاظ كثيرة في كتب اللغة مترادفة وليس من  
فرق بينها إلا أن هذه بالماء وتلك بالماء مع أن الوزن والترتيب  
واحد . فكل ما ورد من ذلك ، إنما هو نطق القبائل المتأخرين  
بالفرس . وفي رأبي أن جميع الألفاظ التي أبدلت حاؤها هاء يجب  
أن تحفظ كأثر أدبي تاريخي ولا ينبغي أن نستعملها في أساليبنا .  
ولذلك يجدر أن يلاحظ هذا من يقومون بوضع المعاجم فيدخلوها  
ويضموها إلى أصولها المتفرعة منها عشرين إلى عدم جواز  
استعمالها ولا ينبغي أن يضموها في مواد مستقلة . وأعتقد أنه  
لا يجوز لنا أن نقول فلان مليه حينما نريد أنه ملبح . ومدحت  
فلانا حينما أقصد أنني مدحته ولا معنى لأن نجعل ملح أو مدح  
في باب الحاء فصل الميم ومله أو مده في باب الهاء فصل الميم في  
معاجم اللغة وأذكر أنني كتبت في هذا الشأن بحثاً واسماً نشر  
أغلبه وفيه قواعد وضوابط يمكن الاسترشاد بها لمن شاء .

٧ - العنمة : تخرص القبائل النجدية على أن توضح  
الهمزة ونحاصة في أول السكامة أو آخرها خشية أن يجور عليها  
بدء النطق أو الوقف فيقروون الهمزة إلى أن تكاد تقارب العين  
وفي بعض الأحيان ينطقونها عينا ، وهذا ما يسمى حينئذ عنمة  
وقد نسب إلى تميم وقيس أنهما قولان في أن عن وفي أصل علم  
وقد جاء من ذلك :

فما أبن حتى فلان باليت « عننا »

تراب و « عن » الأرض بالناس تخفف

ويبدو أن تمها تقلب الهمزة الأخيرة في بعض الأحيان عينا  
فقد ورد أن قبيلة تميم تقول في الخباء خباع .

٨ - الكشكشة والكسكة : وكما تخرص القبائل  
النجدية على توضيح الهمزة تخرص كذلك على إبراز الحركة  
الأخيرة إذا كان في الوقوف عليها لبس وذلك في كاف المخاطبة إذ  
أن الوقف عليها بالسكون يجعلها تلتبس بكاف المخاطب فلهذا  
ينهما قلبوا كاف المؤنثة شينا ثم توسعوا في ذلك فقلبوها في حالة

الوصل أيضاً . وهذا ما يسمى كشكشة ، وقد روى القيس  
ابن اللوح :

فميتاش عيناها وجيدش جيدها

سوى عن عظم الساق منش دقيق

وأصله عيناك وجيدك ومنك . وفي البيت شاهد آخر وهو  
همزة أن التي أبدلت عينا . ومن كشكشتهم ما يكون بالحاء  
شين ساكنة بكاف المخاطبة حين الوقف عليها (رأيتكش) . وهذه  
الكشكشة وتلك في قبائل تميم وقيس وأسد وربيعة . وبعض  
بطون هذه القبائل يجعلون بعد كاف المخاطبة أو بدلها سينا وذلك  
ما يسمى الكسكة .

قال الزبيدي في مقدمة شرح القاموس : الكشكشة في ربيعة  
ومضر والكسكة فيهم أيضاً . وقال الأشموني : الكشكشة في  
لغة تميم والكسكة في لغة بكر من ربيعة . وفي شرح الرضي  
على كافية ابن الحاجب : ناس كثير من تميم وأسد يجعلون مكان  
كاف المؤنث شينا .

غير أننا نجد صاحب القاموس - وشارحه الزبيدي أيضاً -  
تارة يقول الكشكشة لميم والكسكة لبكر . ومرة يقول  
الكسكة لغة تميم لا بكر وقيل الكسكة لهوازن وهي من  
قيس ، ومرة يقول : كشكشة أسد وكسكة ربيعة ويواقته في  
ذلك أحمد بن فارس في كتابه الصحاحي . ومرة يقول الكشكشة  
في بني أسد أو في ربيعة . ومرة يقول إن إبدال الكاف التي  
للخطاب شينا لغة بني عمرو من تميم . وعلى كل حال فإن بطون تميم  
جمت بين النوعين ماذلك إلا لمجاورتها كما سبق أن قدمته في مقال  
سابق - لمختلف هذه القبائل من أسد وقيس وربيعة .

لكن أهل اليمن يجعلون الكاف شينا مطلقا وسمى ذلك  
شارح القاموس « الوتم » وسماه الأستاذ هائم عطية في كتابه  
الأدب العربي نقلا عن بعض المصادر « الشنشنة » والقلقشندي  
في صبح الأعشى ، قصر أهل اليمن على حمير ، وقصر الكاف على  
التي للخطاب . هذا ولم تقع في القراءات الصحيحة تلك الأنواع  
من قلب الكافات شينا أو سينا أو إلحاق شين أو سين . وقد سمع  
في قراءة شاذة : قد جعل ربش تحتش مربيا